

التوحيد في العبادة ... إشكالية المفهوم والمصداق -3

التوحيد في العبادة ... إشكالية المفهوم والمصداق -3

معاني العبادة في اللغة والقرآن :

قلنا فيما سبق أن أهل اللغة ذكروا أن العبادة لها معان متعددة وهي كما مر :

1- الخضوع والذل .

2- أو مجرد إظهار التذلل.

3- أو بمعنى اللين والذل .

4- أو بمعنى الطاعة .

إن أيًّا من هذه التعاريف لوحدها لا تعطي معنى تامًّا للعبادة ، فكل واحد منها يشكل افتقارًا ونقصانًا في مفهوم العبادة .

أما العبادة في القرآن فقد جاءت بمعانٍ متعددة أيضًا وهي :

1- العبادة بمعنى الخضوع والتذلل ، كقوله تعالى : {أَنْزُومِنُ لِيَدِشَّرَآيِنِ مِثْلِدِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} . أي خاضعون متذللون .

ومنه قوله تعالى : {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ} ، أي جعلتهم خاضعين لا يتجاوزون عن أمرك ونهيك .

2- العبادة بمعنى الطاعة، كما في قوله تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ لَكُمْ إِذْ بَدَّيْتُ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنْ زَهَّهُ لَكُمْ وَعَدُّوْهُ مَّبْذُورًا} يس: ٦٠ . فإن عبادة الشيطان المنهي عنها في الآية المباركة إطاعته.

{يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا} مريم: ٤٤ . فقد قابل العبادة هنا بالمعصية وهي الطاعة .

وجاء في حديث الإمام الصادق (ع) حيث قال : (من أطاع رجلا في معصية فقد عبده) [1].

وعن الإمام الرضا : (... يا ابن أبي محمود لقد اخبرني أبي عن أبيه عن جده عليه السلام ان رسول الله (ص) قال: من اصغى إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق عن الله عز وجل فقد عبد الله وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس...) [2]

3- العبادة بمعنى التأله: ومنه قوله تعالى: {قُلْ إِنْ زَعَمَ الْمُشْرِكُ أَنْ يُعْبُدَ اللَّهَ وَلا يُشْرِكُ بِهِ إلهًا لَهُمْ إلهٌ غيرُ اللَّهِ فَادْعُوهُمْ لِآلِهِمْ هُتًى وَلا تَعْبُدُوهُمْ إلهي كإلهة سواهم يبيدنا وبئذ يذمهم إلا لا يعبد إلا الله ولا يشرك به شيء}.

ومنه قوله تعالى لنبيه عيسى {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أأنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِلَّا نَزَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117)}

والعبادة تكون بالاختيار لذوي النطق ، وبالتسخير لغيرهم ، مثل قوله تعالى :

{إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} (مريم-93).

وقوله تعالى {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} (الرعد 15).

وللعبد أربعة معان:

1 - العبد بالرق مثل قوله تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ} (النحل 75).

وجمع العبيد مثل قول رسول الله (ص): من خرج إلينا من العبيد فهو حر [3].

2 - العبد بالإيجاد وأوضح مثل له قوله تعالى: {إِن كُنتُمْ مِّن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} (مريم 93).

ويجمع - أيضا - على العبيد مثل قوله تعالى: {وَأَنَّ لِلَّهِ لِيُسَبِّحَهُ لِّلَّامِ لِّلْعَبِيدِ} (الأنفال 51).

3 و4 - العبد بالعبادة والخدمة ويقال له العابد أبلغ وينقسم إلى قسمين:

أ - عبد لله مخلصا وحقيقة وجمعه: العباد، مثل قوله تعالى في ما حكاه عن موسى وفتاه: {فَوَجَدَا عَبْدًا عِيْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتِيْدِنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّامِنَاهُ مِّن لَّدُننَا} (الكهف 65).

ب - عبد للدنيا يعكف على طلب الدنيا، ويجمع على العبيد مثل قول النبي (ص): (تعس عبد الدرهم وعبد الدينار) [4].

ولما كان الرب تصدر منه الأوامر والنواهي لهداية الناس يقال لمن أطاعه عبد الرب يعبده عبادة وهو عابد، أي أطاعه ويطيعه وهو مطيع للرب، ولما كان الإله بمعنى المعبود، وتجرى له الطقوس الدينية يقال: عبد فلان الإله يعبده عبادة فهو عابد أي أجرى الطقوس للإله .

فعبادة الإله الخالق جلّ وعلا: إجراء الطقوس الدينية له مثل إقامة الصلاة وأداء مناسك الحجّ .

وعبادة الاصنام: إجراء الطقوس الدينية لها.

وعبادة الربّ: إطاعة الربّ، لأنّ الربّ هو المربّي الذي يسنّ نظام الحياة لمن يُربّيه. فمعنى قولنا لربّ العالمين: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ): نطيع أوامرنا لهدايتنا إلى الصراط المستقيم.

الخضوع لغير الله هل يعد عبادة؟

هل أن مطلق الخضوع يعد عبادة؟ وهل نهى الله عنه أو أمر به؟

للإجابة على هذا يحتاج أن نعود إلى القرآن الذي هو المرجع الأساس لتحديد المفاهيم القرآنية وإذا ما رجعنا إليه وجدنا ما يلي:

1- الأمر بالخضوع والذلة أمام الوالدين :

{وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} (الإسراء/24).

(اخفض) صيغة أمر دالة على وجوب التذلل أمام الوالدين ، فكيف يأمر بالتذلل لهما ثم يكون هذا التذلل عبادة لهما؟! بل أن خفض الذل لهما من الإحسان الذي قابل به الله تعالى العبادة في قوله تعالى (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَسْلًا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيُطَّاعَ وَيُطَاعَ وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا) (الإسراء: ٢٣)

2- السجود للأنبياء كما حدث لنبيين ، أحدهما ما حدث لآدم عليه السلام من أمر الملائكة بالسجود له : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) (البقرة/34)

وثانيهما: ليوסף عليه السلام وتحقق رؤياه : (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) (يوسف/4). كما يحكي تحققه بقوله سبحانه: (وَرَفَعَ أَبُو يَهُدَى الْعَلَى الْعَرْشِ وَخَرَّ وَاللَّهُ سُجَّدًا) وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً} (يوسف/100).

فهل سجود الملائكة لآدم يعد عبادة له؟

وهل سجود أخوة يوسف مع أبيهم عبادة ليوسف؟

ولا خلاف في أن السجود خضوع لهم ، ولكن هل هذا الخضوع عبادة؟

ولو أقر بأن السجود خضوع - كما هو الصحيح - كان عمل الملائكة وأخوة يوسف عبادة .

3- التذلل للمؤمنين:

{فَسَوْفَ يَأْتِي آيَاتٌ بِقَوِّمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ} (المائدة/54).

فإن المؤمنين يتذللون للمؤمنين ولا حرج في ذلك .

والخلاصة : أن مجرد الخضوع والتذلل لا يعدّ عبادة وإلا اعتبرنا جميع المؤمنين الذين يتذللون لمؤمنين آخرين عابدين لهم ، بل أن خضوع الولد لوالديه عبادة لهم وكذلك الخضوع الذي ليس بعده خضوع أمام الحكام والرؤساء وخصوصاً الطغاة منهم فلا يتنفس ولا يتكلم ولا ينظر إليه إلا بكل أدب واحترام وإجلال بل إن دخوله عليهم كدخوله على آية من شدة خضوعه والتذلل أمامهم، فهل أن هذا الخضوع هو الخضوع الذي يعدّ عبادة أو أن سلاطين الجور لا مشكلة في الخضوع والخنوع لهم طمعاً في مالهم وخوفاً من بطشهم !! وهذا يخرج الموضوع عن دائرة العبادة .